العادة ونتائجها

بقلم جبرائيلي ضرغط استاذ الفلسفة والرياضيات في مدرسة كفتين

(تابع ما قبله)

ومن أظهر ما يستدل منهُ على صحة الرأي الذي ذكرناهُ من وجود مجهز عصبي تصدر افعالهُ بداهةً اي بدون توسط الارادة ما يصدر من النائم احيانًا فانهُ يقال ان احد الحامين عرضت عليهِ مسألة شرعية اشغلتهُ مدة وهو لا يهتدي الى حلها لتغلغل شعبها وانفاس مسالكها فلما كانت ليلة بعد ان اوى مضجعهُ ونام قام في نومهِ الى مكتبهِ فكتب الساعة والساعتين ثم رجع الى فراشهِ ولما استفاق صباحًا رأى من نفسهِ كأنهُ حلَّ في المسألة واهتدى الى حلها لكن لم يكن بذكر من ذلك الاَّ هذا الذكر الخيالي ولما فاتح زوجتهُ ذكرت لهُ انها رأتهُ يكتب على مكتبهِ في ساعة كذا من الليل فنتش بين اوراق المكتبة فاذا حلُّ المسالة مسطور هناك وفق ما يريد. ويحكى عن آخر انهُ اشتغل في مسألة رياضيَّة مدة فلم يهتدِ الى حلها الاَّ انهُ استفاق يومًا صباحًا فاذا هو مسطور على ورقة على اخصر طريقة تمكن وعلى اسهلها فعجب لذلك وسال صاحبة المنزل التي هو في بيتها عمَّن دخل الى غرفتهِ فاكدت لهُ ان لم يدخلها احد سواهُ فامعن في الاحرف فاذا الخط خطهُ والاسطر اسطرهُ وهو لم يعلم شيئًا من ذلك . ويحكى ان احد النفوس الواعظين ألَّف عظةً من احسن ما وعظ وهو في حالة النوم . فهذه الحوادث وما اشبهها يؤخذ منها ان تلك الافعال العقليَّة انما هي افعال منعكسة للمجهز الدماغي صدرت عنهُ بدون مداخلة الارادة . الاَّ ان هذه الاحوال لا تقع ممن لم يعتادوا مثلها او يتمرنوا على اشباهها سابقًا تحت عناية الارادة فانهُ لا يمكن لجاهل في المسائل الشرعية ان يتهيأ لهُ حل مسألة معضلة في هذا الفن ولا لمن لم يشتغل في الرياضيات ان يجيء بحل مسألة فيها وفقًا لقواعدها وعلى اقرب طريقة فيها واحسن ترتيب ولا لمن قضى حياتهُ وهو يكاد لا يفهم ما يوعظ بهِ ان يؤلف عظةً من العظات

ومن هذا القبيل افعال من يجول في نومهِ وافعال المنوَّم فان الاوَّل قد يفعل من الافعال ما يعجز عن اقلها في حالة اليقظة من جري على شرفات الابنية مع ما هي عليهِ من العلوّ وقلة العرض او التسلق على الاماكن العالية حيث يكاد لا يجد مترًا لرجلهِ فان هذه جميعها افعال منعكسة للمجهز الشوكي واذا تأملنا رأينا انها منعكسة تجري على اتمّ الفان واشدّ احكام ما لو كانت ارادية لانها كذلك لا يشوّش فعلها التأثر بما سواها من المحسوسات او هلع الارادة مما يرى

او مما يستدعي الخوف وفشل التدبير . وكذلك افعال المنوّم فانهُ يجيب احسن اجابة عما يسأل عنهُ وقد يقول بما غابت عنهُ معرفتهُ وقت اليقظة حتى يظن ان لا اثر لهُ في نفسهِ . ومعلوم ان افعالهُ العقليَّة هذه تصدر عنهُ لا بموجب الارادة كما لا يخفى على عارف بحالة التنويم فهي اذًا افعال منعكسة او بديهية لجهازهِ الدماغي ونسبتها الى القوى العاقلة كنسبة حركات الجائل في نومهِ وافعالهِ الى الحبل الشوكي . ولا يخفى على المتأمل ان افعالهُ البديهية هذه قد تكون ادق واصوب منها في حالة يقظتهِ لانهُ كذلك يتأتى توجيه الانتباه اتمّ توجيه الى الحالة التي هو فيها فلا يشوش على الجهاز في اعمالهِ حينئذٍ مشوّش من مداخلة الارادة وصرف الانتباه الى موضوعٍ آخر

بقي علينا ظاهرة اخرى نبيّن انطباقها على الجهاز العصبي او الدماغي وهو ان ما اعتيد عليهِ قبل البلوغ يصعب نسيانهُ بعد ذلك كما انهُ يصعب بعدهُ اكتساب ما هو مغاير للحالة التي اعتيد عليها قبل البلوغ

كل ذلك لانهُ بعد البلوغ ترسخ الجهازات البدنية والعقلية على الحالة التي اعتادتها قبلهُ فيصير ذلك الجهاز في حالتهِ هذه جزءًا من مجموع الهيكل تحفظهُ الغاذية في حالة اعتيادهِ هذه

ولما كانت الاجزاء النامية اولاً والمتكاملة اولاً اشد رسوخًا من النامية ثانيًا او ثالثًا والمتكاملة كذلك كان الارسخ في دور الانحطاط ونقصان التغذية اقوى من غير الارسخ على تمثيل الغذاء واحتفاظهِ على اعتيادهِ فيزول الاضعف رسوخًا اوّلاً فاولاً ويبقى شديدهُ الى ما بعدهِ ولذلك فما حصل اكتسابهُ بالعادة بعد البلوغ كان اقرب زوالاً وما اُكتُسِب في ايام الصبوة كان اشدّ ثبوتًا فتحفظ النفس مدركاتها ايام الصبوة في زمن الانحطاط وتضيع اولاً ما اكتسبتهُ آخرًا . فان اوّل ما ينساهُ الهرم حوادث كهولتهِ واعمالهُ فيها ثمّ حوادث شبابهِ وآخر ما يبقى في نفسهِ ذكر ايام صباهُ وما فعل اثناءها

وكل ذلك ظاهر تعليلهُ على مبدإ ان الاثر الذي توجبهُ العادة في الجهاز ايام الكهولة يكون اقل رسوخًا من غيرهِ ولذلك كان اوّل ما يمحّي ازمان لا تقوى التغذية على تهيئة الغذاء لكل اجزاء الهيكل ثم يمحّي ما اُكتُسِب قبل الكهولة عند ما يزاد الانحطاط وهكذا يمحّي جزءًا بعد آخر حتى لا يبقى من الاجزاء الاّ الاجزاء الاصلية فاذا ازداد الانحطاط وعجزت الغاذية عن حفظها ايضًا مات الهيكل

وما ذكرناهُ قد يكفي في بيان ما اردناهُ من استقلال اعمال الجهازات بعد ان تتكيف بالعادة على كيفٍ مخصوص حتى قلما تحتاج الى فعل الارادة الاّ في استحداثها اولاً . وقد يكون الحادث لها غير الارادة من تأثير خارجيّ كما لا يخفى على المتأمل في كثير من احوال اليقظة والمنام والتنويم

الّا اننا نزيد المقام اشباعًا بذكر ما نراهُ من حكم العادة ولا دخل معها للارادة في بعض افعال الجسم والعقل معًا. وذلك يكون على اوضحو واجلاهُ في افعال الحيوانات الدنيّة الرتبة والاطفال والمعتوهين ما نعلم من عدم مداخلة الارادة في هؤلاء اوضعفها الشديد بحيث تكون كل افعالهم او اغلبها تجري مجرى البداهة او على ما يعرف اصطلاحًا بالفعل المنعكس. فمن ذلك ان اكثر ما يتعلمهُ الحيوان كالحصان والكلب مبني على مبدإ ائتلاف المعيّة او المقارنة اعني ان نعوّدهُ على بعض اعمال وندرّبهُ عليها حتى اذا اعتادها اورسخت في مجهزهِ كان اقل فعل يحدث عليهِ له ائتلاف معيّة بتلك الافعال كافٍ لان يهيج مجهزهُ للعمل الذي اعتادهُ

فالكلب الذي يعوّد على مسك الشمعة مثلاً يرافق تعليمنا ذلك له وتدريبنا اياهُ عليهِ بعض اشاراتٍ او كلمات منا له مع بعض ظروف اخرى او بدونها فاذا اشرنا اليهِ بتلك الاشارات او لفظنا على مسمعهِ تلك الالفاظ المعينة المعتادة فعلّ حينئذٍ مجهزهُ المخصوص بمسك الشمعة افعالهُ بداهةً على مبدإ ائتلاف المعيّة فيمسك الشمعة او يعمل غير ذلك مما درّبت عليهِ مجهزاتهُ. وكل ذلك اما لا دخل للارادة معهُ اصلاً او ان اثرها لوحدهِ لا يتوى على حمل الكلب على تلك الافعال لولا اعتبار المجهزات عليها وتمرينها سابقًا. وقد يرّن المجهز على العمل حتى ان مجرّد رؤية الكلب مائدة الطعام والآكلين عليها يكفي ان يدعو مجهزهُ الى العمل فيقف الوقفة المعتادة ويرفع يديهِ سواء مسك شمعة او لم يمسك

وفي اول الامر قد لا يأتي بعملهِ هذا الّا اذا رأى الاشارات المخصوصة وسمع الكلمات المعيّنة من الشخص المعين ايضًا ورافق كل ذلك من الاحوال المعتادة كوجود المائدة وكثرة عدد الآكلين وزيادة الشموع والاضوية بل ربما اظهر من التململ وعدم الرغبة في الامر ما لا بدّ معهُ الى تكرار الاشارات والكلمات وحثهِ فعلاً الى العمل كانهاض يديهِ ووضعهِ على الوضع المقتضي ثم اذا ألف على العمل ودُرّب فيهِ المرّات قلّ تململهُ عند العمل ثم اذا ازداد دربة ايضًا قلّت الحاجة الى امرهِ اكثر من مرّة واحدة ثم قد يستغني عن الامر جميعهِ فلا يحتاج الى الاشارات ولا الى الكلمات بل مجرّد رؤيتهِ الطاولة يبعثهُ الى الحركات والاعمال المعتادة بل قد يكون في السوق فيرى عرضًا او يسمع من الاشارات او الكلمات ما لهُ ائتلاف معيّةٍ مع عملهِ المعوّد عليهِ فيقف ويبدي اعمالهُ وحركاتهِ المعتادة على ما يديها حذاء الطاولة. وهكذا يقال في تعليم الخيل وحمار البهلوان وعنزتهِ ما امرهُ معلوم كل العلم عند الاكثرين

ثم ان بعض ما يعتاد عليهِ في اوقات معينة يعاود المعتاد عليهِ في الوقت نفسهِ بداهةً وليس ثمّ ما يعرفهُ بالوقت فانهُ يحكى عن كلبٍ كان يُطعم في زمان معيّن ومكان معيّن فكان يأتي

المكان المعين في الزمان المعين تمامًا لا يخطئه كأنّ معهُ ادقّ الساعات واضبطها

ويحكى عن سنونو كان يأتي الى كوخ كل يوم في ساعة معينة بعد الظهر ويضرب بمنقاره باب الكوخ يطلب رزقهُ المعتاد . ويحكى ايضًا عن كلب كان يكره الغسل وكان اصحابهُ يغسلونهُ في كل خمسة عشر يومًا مرة فصار اذا جاء اليوم المعين يهرب من البيت فلا يعود اليهِ حتى يمرّ وقت الغسل . ومن المعلوم ايضًا ان حصان من يتجوّل على زبائنهِ اذا مرّ عليهم مرة بعد اخرى صار من تلقاء نفسهِ يقف في باب كل زبون لا يبدي حركة اثناء زمن اعتياد صاحبهِ على البقاء في بيت ذلك الزبون فاذا انقضت المدة قلق وتململ حتى اذا كان صاحبهُ في غفلةٍ عن فوات الوقت فطن لذلك وهو ايضًا اذا حدث ما دعا الى وقوفهِ في مكان معين من الطريق وقف في المكان عينهِ المرّة الثانية بعد هذه

وقد يكون من الاشخاص مَن تدعوهم اشغالهم للقيام في ساعة معينة من الليل فيستخدمون المنبّه في بدء الامر فاذا اعتادوا القيام في تلك الساعة على ايام استغنوا اخيرًا عن المنبه كل الاستغناء فيستيقظون من نومهم العميق في الساعة والدقيقة المعتادتين الاّ انهُ لا ينكر ان افراد الحيوان والانسان على تفاوت فمنهم من يسهلُ عليهِ كل السهولة التكيُّف لما يلائم المعتاد ومنهم من يصعب عليهِ ذلك فلا يحصل معهُ هذا التكيُّف الاّ بعد اشد التمرين مدة طويلة جدًّا وقد لا يبلغ في ذلكَ الاّ مبلغًا دون الطفيف

ومن المشاهدات في صغار الولدان انهم اذا اعتادوا في شيء عاودهم الامل في معتادهِ فقلقوا لذلك كل القلق ان لم يحصلوا على المؤمَّل وبعض الصغار من الصبيان ممن قوة النموّ فيهم على اشدّها وبنقصهم من التهذيب وقوة الارادة يصبحون عبيدًا للعادة فتجري اعمالهم البدنيّة وحركات خواطرهم وراء المعتاد لا وراء ما يقضي بهِ حكم النظر الصحيح وقوى النفس العاقلة قضاء بالاحسن فترى الكثيرين اذا الفوا غذاء معينًا لا يتناولون غيرهُ ولو اضرّ بهم ناب الجوع وحال النفر المدقع بينهم وبين ما اعتادوهُ وترى آخرين اذا اختلف حال عليهم شيئًا عما اعتادوهُ تركوا العمل ولو فيهِ لهم من الضرّ والخسارة الشيء الكثير وترى الآخرين لا يلبسون من الثياب ما خرج في شكلهِ عما الفوهُ ولو قرصهم البرد واضرّ بهم التعرّي . وقد قال احد المدققين في البحث ان اصحاب معامل الاشيات اذا غيّروا في لون اشياتهم واشكالها الى غير المعتاد رغب اللابسون عن بضاعتهم فكسدت ولذلك تبقاء الاشيات احيانًا الى زمن طويل لا تخرج عن هندام معين الى احسن منهُ ليس من نقص في تفنّن اصحاب المعامل بل معظم سببهِ في اللابسين فانهم ينكرونهُ اذا تغير عما طبعتهُ العادة في اذهانهم

وقال احد اصحاب المخازن الكبيرة ان المشتغلات عندهُ تركنَ الشغل عن آخرهنَّ في مخزنهِ مدة خمسة عشر يومًا لانهُ ارادهنَّ ان يخالفنَ هندام المشغول شيئًا اعتدنهُ ولم يكن في الامر ما يوجب لهنَّ ادنى مشقَّة زيادة عن الاول . فكل ذلك اعني ما مرَّ باجمعهِ وامثاله من الحوادث مما يدل على شدة الميل الى البقاء على المألوف ومقاومة ما يخالفهُ مما لا يعلَّل عنهُ تعليلاً مقبولاً الاَّ ما ذكر من امر الجهاز العصبي واعتيادهِ بحيث صارت اعمالهُ تجري على البداهة فيكون نسيانها والخروج عنها الى ما يغايرها كل ذلك يصعب عليهِ و يبعث على المقاومة والعناد او البقاء على ما كان . وقد يظهر ميل هذا الجهاز على اشدّهِ للرجوع الى الحالة التي كان عليها في بعض المعتوهين الذين تنقصهم الارادة في سائر حركات عقولهم وابدانهم فتكون جميعها من قبيل الحركات البديهيَّة لما ان عنهم حال دونهم ودون استيلاء قوة الارادة والحكم على افعالهم . فقد حكت مس مارتينو عن فتًى اودع الى عنايتها وكان الفتى قد اصابهُ العتهُ لاصابة في دماغهِ فلم يتهيأ لهُ من عتههِ ان يكتسب قوة النطق ولا ان يفهم لغة الآخرين او يفقه شيئًا من خواطرهم الاَّ انهُ مع هذا كان شديد الاحساس حتى انهُ يشق عليهِ ادنى تغيُّر يعرض على احوالهِ في الزمان والمكان و يتململ منهُ لكن كان اذا صُنع بهِ او لهُ شيء في وقت معين من اليوم يطلب معاودة صنع ذلك الشيء بعينهِ كل يوم في وقتهِ المعين من يوم اذ صُنع بهِ اولاً فصاعدًا . وكان هذا المعتوه يكره ان يتداخل احد في امر شخصهِ لكن حدث ان طال شعرهُ واظافرهُ فنُصَّ ذاك وقلمت هذه بعد الساعة الحادية عشرة صباحًا بعشر دقائق فلما جاء الغد والساعة عينها والدقيقة عينها جاء بالمقص والمقص والمناشف كأنما هو مدفوع الى ذلك قسرًا ولم يهدأ لهُ روع حتى قُصَّ لهُ واستمرَّ على ذلك فيما بعد في الوقت المعين يعاود طلب ان يُقصَّ لهُ وكان لا يفقه معرفة الساعة مما في المكان من الساعات وعدا عن ذلك انهُ أُبعد عن كل مكان فيهِ ساعة او يتصل بسمعهِ صوت دق الساعة لكن ما زال يطلب ان يُقصَّ لهُ في الوقت عينهِ

وكانت اعمالهُ فيما يتعلق بالشكل والعدد والكمية على غاية من الترتيب والضبط فكان يتلهَّى في قطع الاوراق ويجيء بها على غاية من التناسب والمشابهة وكان لهُ ايضًا عدد من الترميد يتلهَّى بها داخل غرفتهِ فكان اذا ترك غرفتهُ مدَّة ثم عاد اليها يراجع لمسها وعدَّها فاذا وجد منها شيئًا مفقودًا اخذهُ القلق الشديد او يُعاد المفقود . ومما كتبت عنهُ ايضًا انهُ أُعطي بدءًا سبعة من نوع من انواع الحلوى فكان اذا أُعطي بعدها ستة لا يكتفي بها واذا أُعطي تسعة لا ياخذها الاَّ ان يردَّ منها اثنان فتأمل . كل ذلك مما لا يُعال عنهُ تعليلاً مقبولاً الاَّ اذا فرض وجود مجهز وتكيفهُ لما يلائم ما اعتاد بحيث يصح المعتاد مما يشق الخروج عنهُ الى غيرهِ (ستاتي البقية)